نزعات الرصافي العقلية

طالب خليف السلطاني
كلية التربية الأساسية

لقد كان للرصافي – علاوة على شعره– باع طويل في النشاط العقلي والأدبي والفلسفي ومؤلفاته تبين بوضوح سعة افقه الفكري [1]، ودفاعه عن قضايا العقل وما يستلزمه ذلك من تشجيع للإبداع وبناء الأفكار بعيدا عن التقليد والإكراه [2] ، وللرصافي من الآثار الكثيرة التي تدل على سعة مدراكه العقلية منها :دروس في آداب اللغة العربية ، وعلى باب سجن أبي العلاء ومحاضرات في الأدب العربي وكتاب الإلة والأداء ورسائل التعليقات وكذلك أراء في أبي العلاء وغيرها من المؤلفات الكثير ، حيث تتجسد نزعات الشاعر الرصافي العقلية ألحره في شروط أساسيه رئسيه تتضح بشكل أساسي في شعره منها :

1. حرية الفكر :

لقد شهد المجتمع العراقي حملة من القضايا الهامة تطرح بشكل جاد احيانا نتيجة لنماء الحركة الفكرية واتساع نطاق التعليم وزيادة الهجرة الى المدن التي بدأت تتسع وتنمو وتشهد علاقات عبر علاقات الريف والقرية فضلا عن دور الطباعة والنشر والصحافة المحلية والعربية وهبوب التيارات الجديدة في المنطقة ، ومن ابرز الموضوعات التي اثيرت طويلا قضية المراه . ولهذا فان مكانة الرصافي الفكرية تنبئ عنه رائدا في الدفاع عن حرية الفكر وعن قضية المراه فهو القائل :

متى تطلق الايام حرية الفكر فينشط فيها العقل من عقلة الاسر
ويصدع كل بالحقيقة ناطقا ويترك مالم يدر منها لمن يدري [3]

لقد جمع الرصافي افكاره النقدية في قصيدة عنوانها (حرية الفكر) قالها دفاعا عن الحقيقة الحرة وتصديا للاتهامات الزائفة القائلة بكفر احرار الفكر وقد انشدها الشاعر في الحفل الذي اقامه (منتدى التهذيب) يوم الاحد الثاني من ايار / 1926م، فقال :

وجردت شعري من ثياب ريائه فلم اكسه الا معانيه الغرا
هل الكفر الا ان ترى الحقد ظاهرا فتضرب للأنظار من دونه سترا[4]

وبهذ فقد طرحت قضية (الحرية الفكريه) من خلال كتابات واراء متطرفة نشرها بعض المثقفين ممن يدعون الى حرية مناقشة الافكار الدينية كالذي احدثة (ميخائيل يوسف)في كتابه (ماهية النفس ورابطتها بالجسد) .[5]

2. حرية الفكر والوطن :

كان الرصافي يرى ان الوطن لاحرية له اذا كان المجتمع غير حر.وان انعدام حرية الفكر دليل على انعدام استقلالية الوطن كما ان الشاعر لايستطيع فهم وجود العز الوطني بدون العزة الاجتماعية التي هي عزة المجتمع والفرد معا / وما حكاه الرصافي في رثاء عبد المحسن السعدون (1880– 1929). الذي وجد ملاذه في انتحاره ناجيا بكرامته الوطنية عندما يدفع الكرماء ارواحهم قرابين في دروب العزة بعد ان يبخس المال

(1) بدوي احمد طبانه : معروف الرصافي (دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية) مصر 1947م، ص100.وانظر : الرصافي ، دروس في تاريخ اداب اللغة العربية ، بغداد ، 1928م ،ص58، 59.
(2) الادب العربي : معروف الرصافي ، مطبعة المعارف، الطبعة السابعة ، بغداد / 1954م،ص74-77.
(3) ديوان الرصافي : الرصافي ،ج1، (ماذا وراء القبر) ،ص109.وانظر : حكايات عن الصحافة في العراق : يعقوب يوسف . 1969م،ص12-13.
(4) ديوان الرصافي :ج2،في سبيل حرية الفكر ،ص16.
(5) ماهية النفس: مخائيل يوسف ، بغداد ، مطبعة الفلاح ، 1922م، ص المقدمة.

في هذه الاحوال وهو منطلق فكر الرصافي ونظرته الى رجل عربي جاد بالروح واختلافة عن رجل عربي اخر مثلا يجود بالمال كسعد زغلول الازهري المجاهد في سبيل الاستقلال ... فالرصافي يقول في ذلك :

سعد وسعدون محمود مقامهما هذا بمصر وهذا ها هنا اشتهرا[1]

ان الرصافي لم يتوقف عند حدود مبسطه في وعي مسالة الحرية فهي ايضا متكاملة في تطبيقاتها السياسية والايديولوجية والاجتماعية . ومن ذلك كما ذكرنا انه كان يرى ان الوطن لاحرية له اذا كان المجتمع غير حر ، ويقينا ان الربط بين حرية الفكر وحرية الاوطان امر سليم جدا لان وطنا لا يمتع فيه المواطن بحرية الفكر والمساهمة في بناء وطنهم ، والمشاركة في صياغة السياسية الوطنية لايستطيع مواجهة التهديدات الاجنبية والتحديات الاقتصادية بقوة . لقد كان الرصافي خصما لدودا للاستقلال الاسمي المزيف ، فالاستقلال لديه ذو محتوى فكري وسياسي يستند على الحرية الفكرية بشكل اساسي ولو كان المواطن مسلحا بحرية الفكر والسياسة لما حصلت فترات تدهور وحالات هيمنة استعمارية طويلة وهذا ماثبت تاريخيا ، لان سلب المواطن لحريته داخل وطنه سلب منه فاعليته ، وحين كان المحتلون الغزاة يداهمون الوطن كانوا لا يجدون مواقع قوية تردهم الى الوراء وهذا حاصل نتيجة لفقدان الحرية الداخلية التي تؤدي اخيرا الى العجز والشلل فالحرية عند الرصافي هي التي يتحقق بها الهدف المنشود في بناء الوطن الحر وهذا ما اراده الشاعر الرصافي في قوله :

اذا كان في الاوطان للناس غاية فحرية الافكار غايتها الكبرى
فاوطانكم لن تستقل سياسة اذا انتم لم تستقلوا بها فكرا
اذا السيف لم يعضده راي محرر فلا تاملن من حده ضربة بكرا
سواء على الانسان بعد جهوده احل بقفر الارض ام سكن المصرا
اذا لم يعش حرا بموطنه الفتى فسم الفتى ميتا وموطنه قبرا[2]

وبهذا فان حركة الوعي في المجتمع العراقي ما بين الحربين العالميتين ناخذ طريقها بطيئة ثم ما تلبث ان تقوى وتشتد باتساع الطبقة الوسطى وحركتها وقد طرح الشعراء ذلك متاثرين بواقعهم ومنهم الرصافي الذي طرح رايه وفكره ، وقد مثل ذلك بقصائده التي تميزت عن سواها من قصائد الشعراء وعبرت عنه خير تعبير ، فالاديب يجب ان يعبر عن فكره ورايه بما يكتب لان الادب صفة الاديب ولكن ليس كل الادباء سواء في تصوير انفعالاتهم الفكرية والنفسية ونقلها الى غيرهم بواسطة الالفاظ .[3]

لقد شخص الشاعر الرصافي السبب الاساسي والجوهري للتدهور القومي في الحياة العربية في الازمنة اللاحقة ولهذا فمن المؤكد بان فرض اسرائيل هيمنتها على الوجود العربي بحجمه الكبير في الحروب التي خاضتها مع العرب كان ناجما بصورة رئيسية عن فقدان حرية الانسان العربي في وطنه ، فكان مقهورا على يد الحكام العرب فبل قهره على يد العصابة الصهيونية المغتصبة للارض العربية .

3. حرية التعبير :

بدون حيرية التعبير لامعنى لاي ادعاء اخر ، فالشاعر الرصافي ينادي بآرائه وافكاره وكان يجاهر بها فهو مثال للجرأة الفكرية و انموذجا لها ، ولقد وصف دور الصحافة في الدفاع عن الطبقة الفقيرة وكذلك في الدفاع عن الحقيقة ونشرها وتنوير الافكار وتثقيف الناس ، فقال في ذلك :

وما الصحف الا ان تدور بنهجها مع الحق اني دار بين المعاهد
وان تنشر الاقوال لا عن طماعة قتاتي بها مشحونة بالفوائد

(1)-ديوان الرصافي : ص323.
(2) م. ن: ج2،ص17(في سبيل حرية الفكر).
(3) الادب العربي : ص66.

وان لاتعاني غير نشر حقـــــــــائق وتنوير افكار وانهاض قاعـــــــد [1]

ومما لاشك فيه ان الرصافي كان مثقفا تختلف ثقافته عما سبقة من شعراء القرن الذي سبقه ، حيث تلقى علومه اللغوية والدينية والادبية على يد محمود شكري الالوسي وهو اكبر علماء العراق في قضـــايا التـــراث الادبي وصاحب مؤلفات عديده من اشهرها (بلوغ الارب في احوال العرب) الذي نال فيه جائزة المستشرقين وقد لازمه الرصافي اثني عشر عاما افاد منه الكثير [2] ، وكذلك كان معروف الرصافي يتمتع بســـعة الافـــق ولعل السبب في ذلك اطلاعة على المتغيرات الثقافية والكتب في عصره وكذلك اطلاعة على العالم الخـــارجي من خلال السفر خارج العراق كلبنان التي زارها عام 1809م والتقى بمجموعه من ادبائـــه وشـــعرائه وفـــي مقدمتهم امين الريحاني وندره مطران ومحي الدين الخياط [3]

ان الرصافي يتمتع بنزعة عقلية وفكرية نتيجة لاتقانه اللغة التركية بحكم العمل والبيئة واطلاعة على بعض الافكار الاوربية خصوصا فيما يتعلق بالثورة الفرنسية وما قراه مترجما في الفلك والعلـــوم والروايـــات والقصص [4] ، ولقد ظل الرصافي حتى عام 1936م يقول : ان هنالك فريقا من اهـــل الادب يـــدعون الـــى التجديد في الشعر والفكر ولكني لم افهم ماذا يردون من التجديد . ثم قر رايي على ما استنتجته من اقاويلهم ان التجديد هو تقليد الغربيين في شعرهم وادبهم مع ان الشعر هو الوحيد الذي يستحيل فيه التقليد [5]

ولهذا فقد اهتمت الصحافة بادب الشاعر الرصافي وارائه وافكاره فالصحافة يجب ان تخـــدم الحقيقـــة والشعب ولهذا فقد كان معروف الرصافي ضد الصحافة المصلحية والانتهازية التي تكون ضد الحقيقة وتخـــدم اهداف رجعية وتروج الاكاذيب.

4. الحرية ونقد العادات:

ان العادات والتقاليد حجبت عن العقل نور المغامرة الفكرية وكان الشاعر الرصافي يناضل مـــن اجل حرية الفكر ويشرح سيطرة العادات على سلوك الانسان فيقول في قصيده له بعنوان (العادات قاهرات):

كل ابن ادم مقهور بعـــــــــــادات لـــــــــــهن ينقاد في كل الارادات

يجـــــــــــري عليهن فيما يبتغيه ولا ينـــــــــــفك عنهن حتى في الملذات

قد يستلذ الفتى ما اعتاد من ضرر حتى يرى في تعاطيه المسرات[6]

ثم يختم القصيدة بالحديث عن الحرية والحياة الجديدة فيقول :

الحر من خرق العادات منتهجا نهج الصواب ولو ضد الجماعات

ومن اذا خذل الناس الحقيقة عن جهل اقام لـــــها في الناس رايات [7]

5. وحدة الموقف في الشعر والفكر:

لقد كان نهج الشعراء في عصر الرصافي وفي العصور التي سبقته هو التعبير عن ميول ورغبات غيرهم من الناس ، وخاصة الحكام في حين نرى ان الرصافي يوجه عناية كبيـــرة الـــى شـــعر الاخوانيـــات والمناسبات ويحرص على التعبير عما يجول في ضميره من افكار واراء .

---

(1) ديوان الرصافي :ج4،ص90-91.
(2) الادب العصري في العراق العربي : رفائيل بطي – ج1، مصر ،1923م، ص13-17 . وص73-115.
(3) صفحات من حياة الرصافي : هلال ناجي ، ص60.
(4) مجلة الاهلال : عدد يونيو ،1904م، ص524.
(5) في ذكرى الرصافي : عبد الحميد الرشودي ، مكتبة الزوراء ،1950م،ص210-211.
(6) ديوان الرصافي : ج2،ص231.
(7) المصدر السابق ص236. وانظر : التيارات الادبية الحديثة في العراق :د. جميل سعيد،القاهرة ،1954م،ص6.

ان وحدة الموقف في الفكر والشعر دفعته الى نقد الاشقاء في مصر في الموقف المزدوج : مهاجمة علي عبد الرزاق وطه حسين من جانب وتكريم الشاعر احمد شوقي من جانب اخر . فهو يدعو الى موقف موحد في احترام العلماء والادباء والشعراء في ضوء الاحترام الحقيقي لحرية الفكر بمختلف شخصياته ومذاهبه ففي حفلة تكريم الشاعر احمد شوقي التي اقامها (منتدى التهذيب)في 29 نيسان سنة 1927 قال الشاعر ابياتا اراد فيها وخصوصا الابيات الاخيرة (ان الشاعر لاينفع اذا تاخر عن مجال العلم وان العلم لايفيد اذا لم يكن رواده احرارا فلا فخر فيه لمن حاد عن حرية الفكر [1] .) ويقصد الشاعر احمد شوقي بانه لافضل له بهذا التكريم لان اهل الجاهلية قد سبقوا بقية الشعراء في كل العصور التالية فكرموا شعراءهم واليك بعض الابيات من هذه القصيدة الرائعة التي قيلت في تكريم الشاعر احمد شوقي :

ولكنني قد انظـــــــــر الحفلة التي ... تقام ذا اليوم في مصـــــــــر ساخـــرا
اذا احتفلت مصر بشـــــوقي فمالها ... تقيـــم على الاحـرار في العلـــم حاجرا
فقد اسمعتنا ضـــــجة امطرت بها ... " عليا " " وطــه "حاصـــــبا متطـــايرا
فما بال هذا عد في مصـــــر مارقا ... وما بال هذا عد في مصـــــــر كافرا
اذا لم تك الافكار فـــــي مصر حرة ... فليس لـــــــــــمصر ان تكرم شاعرا

ثم يقول في قصيدته:

وتكريم رب الشعر ليس بمفخر ... لـــــمن كان عن حرية الفكر جائرا
والا فعصر الـــجاهلية قبلنا ... له السبق في تكريم من كان شاعـــرا[2]

الخلاصة

يستقطب العقل والحرية جماع فكر الرصافي ولقد كان للثورة الفرنسية الاثر الفعال علـى توجهات الرصافي . ومن المعلوم ان الشاعر الرصافي في تركيا قد تفاعل مع ثورة الشباب ضد السلطان العثماني ، تلك الثورة (ثورة الشباب الترك) التي تاثرت بافكار ومبادئ الثورة الفرنسية فالرصافي ادرك ثورة شباب الترك على الطغاة من سلاطين بني عثمان ولهذا فقد تشيع بروح الثورة وكان لذلك اثر فعال في توجهات الرصافي ونزعاته العقلية لانها ثورة عامة على سائر نظم البلاد انذاك ولا شك ان للشاعر الرصافي والزهاوي اراء جريئة كان للثورة الفرنسية اثر فيها ولقد كان لقصية العقل مركزها الجوهري في افكار الشاعر الرصافي وكانت طبيعة عمله هي من طراز المهمات العقلية والفكرية معا .

لقد مارس الرصافي مهنة التدريس فكان اختصاصه ممارسة للفكر والثقافة والادب وكل ذلك يجول في خدمة العقل والعلم والمعرفة كما ان ميدان الصحافة قد كرس له عملية تكريس العقل بحرية كاملة كما كان يتمنى ويهدف اليه ولهذا فقد كان للرصافي باع طويل في النشاط العقلي والادبي فكان مدافعا عن قضايا العقل بعيدا عن الضغظ او التقليد او الاكراه وله من المدارك العقلية التي تتجلى في كثرة أثاره التي تركها ما يؤيد ذلك .....

(1) ادب الرصافي : مصطفى علي ، القاهرة ،1947م،ص100.
(2) ديوان الرصافي : ج2، ص99-100.

المصادر

1. بدوي احمد طبانه : معروف الرصافي ، مصر ،1947م.
2. رفائيل بطي : الادب العصري في العراق العربي ، مصر ، 1923م.
3. د. جميل سعيد : التيارات الادبية الحديثة في العراق ، القاهرة ، 1954م.
4. عبد الحميد الرشدوي : في ذكرى الرصافي ، مكتبة الزوراء ، بغداد ،1950م.
5. معروف الرصافي : الادب العربي ، مطبعة المعارف ، الطبعة السابعة ، بغداد ، 1957م.
6. معروف الرصافي : ديوان الرصافي ،ج1،ج2،د.ت.
7. معروف الرصافي : دروس في تاريخ اداب اللغة العربية ، بغداد ،1928م.
8. مصطفى علي : ادب الرصافي ، القاهرة ، 1947م.
9. ميخائيل يوسف : ماهية النفس ، مطبعة الفلاح ، 1922م.
10. هلال ناجي : صفحات من حياة الرصافي ،د.ت.
11. يعقوب يوسف : حكايات عن الصحافة في العراق ، بغداد ، 1969م.
12. مجلة الهلال : عدد يونيو ، 1904م.